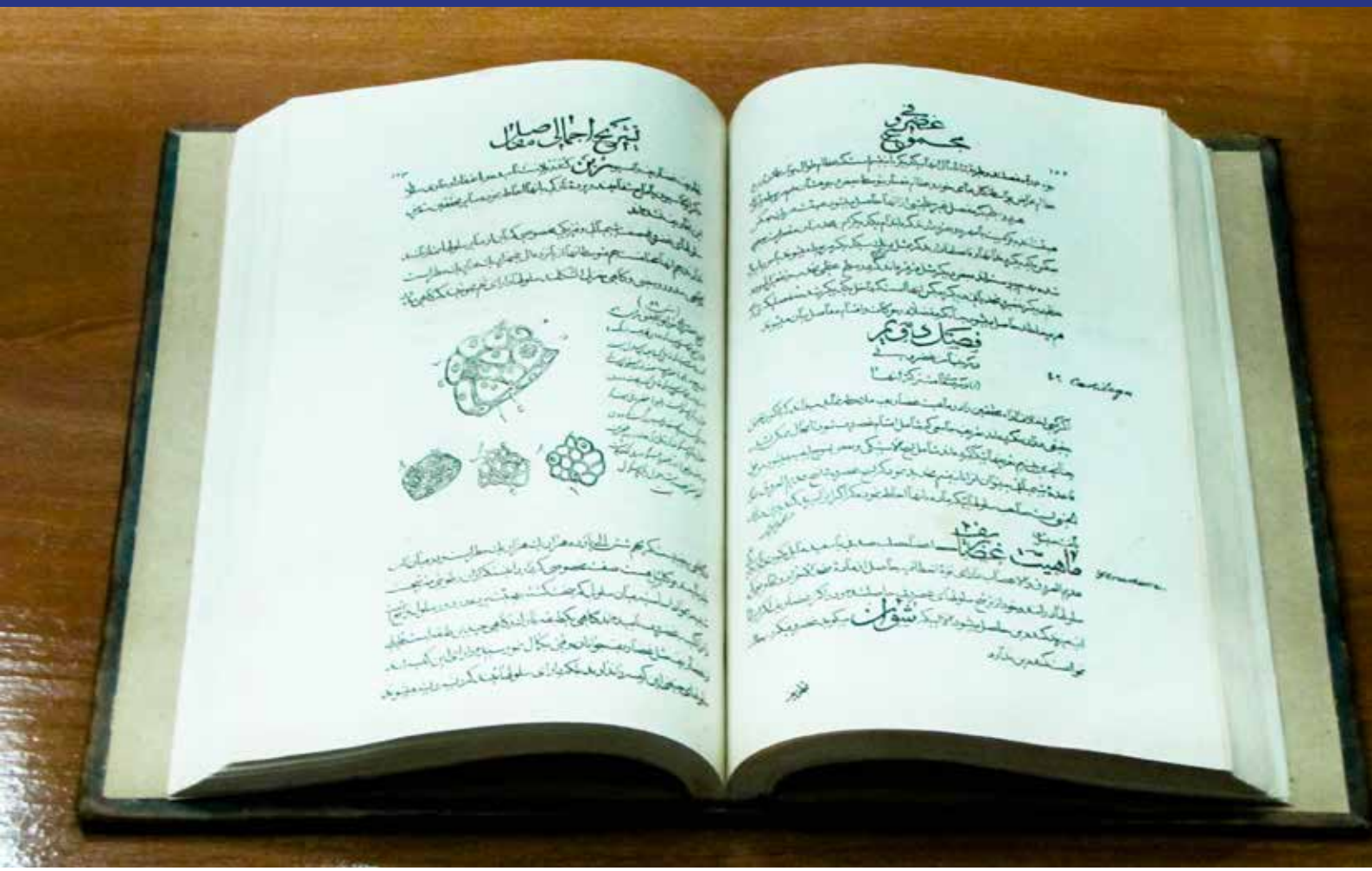

المصطلحات الطبية المعرَّفة في القانون في الطب لابن سينا (ت 428هـ)

د. محمد بوحمدي
أستاذ التعليم العالي
كلية الآداب و العلوم الانسانية ظهر المهراز، جامعة سيدي محمد بن عبد الله

هذا العرض مساهمة متواضعة في الكشف عن منظومة مصطلحية طبية تراثية، مأخوذة من مصدر طبي تراثي معروف، وأعني به : القانون في الطب[1] للشيخ الرئيس ابن سينا رحمه الله.

والقانون في الطب خزان ضخم للمصطلح الطبي التراثي عموما، والمصطلح المعرف منه خصوصاً، المصوغ بلغة علمية بسيطة أنيقة. فكثير من مصطلحاته الطبية شارحة نفسها. وهنا مكمن قوتها الاصطلاحية، والبساطة نبوغ وتميز وعبقرية، لا تتأتى إلا لمن اجتمعت له المعرفة العلمية الدقيقة بالشيء المراد تسميته: علة أو معلولاً، داءً أو دواءً. والملكة اللغوية التي تسعف في إيجاد المصطلح المناسب ببساطة ووضوح، ودون تقعر أو تكلف.

ولم أشغل نفسي بالحديث عن حياة المؤلف، أو ثقافته أو شيوخه، أو مصادره العلمية، أو إنتاجاته الغزيرة التي تقدر بحوالي 276 بين رسالة وكتاب، وفي اللغتين العربية والفارسية[2]. بل اقتصرت، فقط، على رصد المصطلح الطبي المعرف، وجَرْده، واستخراجه. فعملي في هذا العرض عمل تقني، انتقائي. تجميعي للمصطلحات الطبية المعرفة، لتُعرف، ويُعلم بوجودها، وتكون رهن إشارة أهل الصنعة وذوي الاختصاص، ويستفاد منها تأليفا وترجمة. ولا يمكن أن تتحقق الاستفادة منها إلا بشروط[3]:

1. شرط العلم بوجودها.
2. شرط الفهم لمرادها.
3. شرط إعمالها لا إهمالها.

والمقصود بالمصطلحات الطبية المعَرَّفة تلك الألفاظ أو العبارات التي شرح ابن سينا دلالتها الاصطلاحية، وعرفها تعريفا مًا، بالأسباب، أو بالعوارض والخصائص، أو بالمكونات، أو بالوظائف، أو بالضد، وما شاكل ذلك.

فالمصطلح الطبي المعرف إذن، هو اللفظ، أو العبارة، أو الرمز الذي يعين مفهوما مجرداً، أو محسوسا داخل مجال العلوم الصحية[4].

وقد وجد ابن سينا في الاشتقاق عونا كبيرا مكنه من إيجاد المصطلح المناسب، فهو يولّد مصطلحاته الطبية بشكل سلس ومستساغ، ينضبط فيه لقواعد اللغة العربية، ونادراً ما يلجأ إلى استعمال المعرَّب أو الدخيل، فمن مجموع 170 مصطلحا طبيا معرّفا، تقريبا، لم أجد سوى ستة مصطلحات طبية معرّفة معرّبة أو دخيلة. وهذه ظاهرة تلفت الانتباه، ولها دلالتها؛ فندرة المصطلح المعرّب أو الدخيل عند ابن سينا دليل على أن اللغة العربية استطاعت الوفاء بحاجات الطبيب العلمية الطبية في القرنين الرابع والخامس الهجريين، فيما يتعلق بإيجاد المصطلح الصحي المناسب.

واستخدام ابن سينا للمصطلح الطبي المعرّب أو الدخيل في المرات الست تعبير عن اقتناعه بأن هذه المصطلحات الطبية لا يمكن التعبير عنها بدقة باللغة العربية، وهي: المالنخوليا[5]، والمانيا[6]، وإيلاوس[7]، وديانيطس[8]. ومصطلحان عربيان آخران، وضع إزاءهما المقابل الأعجمي رفعاً للبس الدلالي وهما: السلاق (ويسمى انيوسيما باليونانية[9]. والجوع المسمى بوليموس[10]، ويعرف أيضا بالجوع البقري.

ولقد وجد ابن سينا في الاشتقاق، كما سلف القول، آلية مهمة لتوليد المصطلح الطبي العربي الأصيل. وتتكرر عنده، على نحو خاص، الصيغتان الصرفيتان اللتان أجمع اللغويون العرب على استعمالهما للعلل والادواء، هما: فَعَلٌ، وفُعال.

ومن أمثلة فَعَلٌ[11] خَدَر، سَبَل، حَوَل، غَرب، رَمَد...

ومن أمثلة فُعال[12]: قُلاع، سُلاق، عُطاس، دُوار، فُواق، خُناق، جُناب...

واستعمل صيغة صرفية أخرى، بشكل أقل،هي: فَاعول، مثل: كابوس، خانوق (خُناق)، جاثوم...

ونص اللغويون على أنها تستعمل اسماً كما تستعمل صفةً كذلك، مثلما نجد عند ابن سينا.

ويولد اسم الفاعل[13] من الثلاثي، ومن الرباعي لتسمية الأدوية، فنجد عنده الجاذب، والجالي، واللاذع، والكاوي، والقاشر، والقابض. ونجد: المخدر، والمغلظ، والمجفف، والمرطب، والمدّر، والمسهل، والمعرّف...

والملاحظ أن المصطلحات الطبية المعرفة التي وضعت للأدوية قريبة جداً من دلالتها اللغوية العادية، فالمفتت[14] "هو الدواء الذي إذا صادف خِلْطا متحجّراً صغّر أجزاءه، ورَضَّه، مثل مفتت الحصاة من حجر اليهودي وغيره.

والكاوي[15] هو الدواء الذي يأكل اللحم، ويحرق الجلد إحراقاً مجففاً، ويصلّبه. ويستعمل في حبس الدم من الشرايين ونحوها مثل الزاج.

والمحمر[16] هو الدواء الذي من شأنه أن يسخن العضو الذي يلاقيه تسخينا قويا، حتى يجذب قُوى الدم إليه جذبا قويا يبلغ ظاهره فيحمرّ...

وهكذا الشأن في كل المصطلحات الطبية المعرّفة التي وضعها للأدوية، فهو لا يرهق نفسه، ولا يجهد فكره في البحث عن المصطلح، إذ يستمده من تأثير الدواء ووظيفته.

ويطبق هذه الآلية أو هذه التقنية فيما يخص المصطلحات الطبية للمرضى، فهو يستعمل صيغة اسم المفعول من الثلاثي: فالمريض بالبواسير[17] مبسور[18]، والمصاب بالفَتْق[19] مفتوق، والمريض بالسكتة[20] مسكوت، والمصاب بذات الجنب[21] مجنوب ومعلول المعدة مَمْعود... وسار على هذا النحو في كثير من الأدواء والعلل.

والجميل في المصطلحات الطبية المعرّفة التي ينحتها ابن سينا بآلية الاشتقاق، أنها تتكون من لفظة واحدة فقط لا غير، هذا هو النمط الغالب. غير أنه يلجأ، أيضا، إلى أسلوب آخر، إلى جانب الاشتقاق، في توليد المصطلحات هو التركيب الإضافي (مضاف+ مضاف إليه)، فنجد عنده مصطلحات طبية معرّفة تعتمد على علاقة التضايف، مثل ذات الجنْب[22]، ذات الرئة[23] داء الكَلَب[24]، داء الفيل[25]...

وقلما يستعمل المركب الوصفي مثل: الجوع المغَشِّي[26]، النَّفَس الصغير[27] أو الضيق، النَّفس العظيم[28].

ولابن سينا، في تعريف المصطلح الطبي، أدوات منهجية أخرى تتمثل في الاعتماد كثيراً على الأسباب، والعوارض، واللوازم الذاتية، كما يشير إلى ذلك في سياق تعريفه لعلم الطب: "الطب علم يتعرف منه أحوال بدن الإنسان... لما كان الطب ينظر في بدن الإنسان من جهة ما يصح ويزول عن الصحة، والعلم بكل شيء إنما يحصل ويتم إذا كان له أسباب، فيجب أن يعرف في الطب أسباب الصحة والمرض. والصحة والمرض قد يكونان ظاهرين، وقد يكونان خفيين، لا ينالان بالحس، بل بالاستدلال من العوارض..."[29].

ويقول أيضا: "العلم بالشيء إنما يحصل من جهة العلم بأسبابه ومباديه إن كانت، وإن لم تكن، فإنما يتم من جهة العلم بعوارضه، ولوازمه الذاتية.[30].

فعينه عند التعريف، في الأغلب الأعم، على هذه العوامل الثلاثة: الأسباب، والعوارض[31]، واللوازم الذاتية[32].

ومن أمثلة التعريف بالأسباب، تعريفه للرعشة، وتعريفه للقُمور:

1. الرعشة[33]: علة آلية تحدث لعجز القوة المحركة عن تحريك العضل على الاتصال.. فتختلط حركات إرادية بحركات غير إرادية، وهي آفة في القوة المحركة. كما أن الخدر آفة في الحسّاسة.

2. القمور[34]: قد يحدث من الضوء الغالب، والبياض الغالب، كما يغلب إذا أديم النظر في الثلج، فلا يرى الأشياء، أو يراها من قريب، ولا يراها من بعيد.

ومن أمثلة التعريف بالعوارض تعريفه للَّقْوة، وتعريفه للمانيا:

1. اللقوة[35]: علة آلية في الوجه، ينجذب لها شق من الوجه إلى جهة غير طبيعية، فتتغير هيئته الطبيعية، وتزول جودة التقاء الشفتين والجفنين من شق.. والجانب المريض هو الذي يرى سليما.

2. المانيا[36]: هو الجنون السبعي، كله اضطراب، وتوثب،وعيث وسبعية، ونظر لا يشبه نظر الناس، بل أشبه شيء به نظر السباع.

ويعمد، أحيانا إلى تعريف المعرّف باللوازم الذاتية،

أو الخصائص[37]، بأن يذكر الشكل، أو اللون أو الحجم، أو ما شابه ذلك.

ومن أمثلة هذا الصنف تعريفه للطّرفة، وتعريفه لِلْبَرَدة:

الطّرفة[38]: نقطة من دم طري أحمر، أو عتيق مائت، أكْهَب أسود، قد سال عن بعض العروف المتضجرة في العين بضربة مثلا، أو لسبب آخر مفجر للعروف.

البَرَدة[39]: رطوبة تغْلُظ، وتتحجر في الجفن، وتكون إلى البياض، تشبه البَرَد.

كما يعرف بالمكونات، بأن يصف المفهوم من خلال التركيز على تعداد أهم مكوناته[40].

ومن أمثلته: تعريفه لقصبة الرئة، وتعريفه للكبد:

قصبة الرئة[41]: عضو مؤلف من غضاريف كثيرة، دوائر وأجزاء دوائر، فضّد بعضها على بعض.

الكبد[42]: هو العضو الذي يتمم تكوين الدم، لحم أحمر، كأنه دم، ولكنه جامد، وهي حالته عن ليف العصب منبثة فيها العروق التي هي أصول لما ينبثّ منه متفرقة فيه كاللّيف.

ويعرف أحيانا بالقسمة[43]، ولم يعرف بالضد الاَّ مرة واحدة، في معرض تعريفه للصحة والمرض؛ فعندما يعرض الصحة "بأنها هيئة يكون فيها بدن الإنسان في مزاجه وتركيبه، بحيث يصدر عنه الأفعال كلها صحيحة سليمة."[44]، يعرج على المرض معرفا، ويقول: "المرض هيئة في بدن الإنسان مضادة لهذه الحالة"[45].

تلك بعض السمات أو الخصائص العامة التي يتميز بها المصطلح الطبي عند ابن سينا صياغةً وتعريفا.

وقد أرفقت هذا العرض بمسرد للمصطلحات الطبية المعرفة التي عرفها الشيخ الرئيس في كتابه القانون في الطب، ولم أهمل إلا التعريفات الطويلة جداً التي يستغرق بعضها ما يقارب صفحة الكتاب، كتعريفه للسان، على سبيل المثال. ولكنها على كل حال قليلة جداً ولا تقلل من قيمة هذا المسرد وأهميته.

وأملي أن أكون قد ساهمت في تنشيط الذاكرة الطبية التراثية، واستحضار جزء صغير جداً من إنجاز شخصية عظيمة في تاريخ الطب العربي الإسلامي، ولم يكن ابن سينا عظيما في الطب البدني فقط، بل وفي الطب النفسي كذلك.

المراجع:

1. الكتاب في ثلاثة أجزاء, عدد صفحاته 1540 صفحة طبعة دار صادر. بيروت.
2. موسوعة مصطلحات ابن سينا .د. جيرار جهامي.مكتبة لبنان ناشرون. ص:
3. نظرات في تعريف العلوم الصحية وأهمية المصطلح الصحي في التراث دراسات مصطلحية (9). الدكتور البوشيخي. ص:22.
4. علم المصطلح لطلبة كليات الطب والعلوم الصحية, بإشراف الدكتور محمد هيثم الخياط الإشراف العام والمراجعة الدكتور الشاهد البوشيخي. ص: 62.
5. القانون في الطب 65/2
6. نفسه 63/2
7. نفسه 471/2
8. نفسه 526/2
9. القانون في الطب 132/2.
10. نفسه 319/2.
11. ينظر مسرد المصطلحات الطبية المعرفة في القانون.
12. ينظر المسرد.
13. ينظر المسرد.
14. القانون في الطب 234/1.
15. نفسه 234/1.
16. نفسه 233/1.
17. نفسه 479/2.
18. نفسه 484/2.
19. نفسه 609/2.
20. القانون في الطب 86/2.
21. نفسه 238/2.
22. نفسه 611/2.
23. نفسه 319/2.
24. نفسه 214/1.
25. نفسه
26. نفسه 214/1.
27. نفسه.
28. نفسه 63/2.
29. علم المصطلح لطلبة كليات الطب والعلوم الصحية: 232.
30. القانون في الطب: 128/2.
31. نفسه133/2.
32. نفسه.
33. نفسه
34. لعله يقصد الأعراض باللغة الحديثة.
35. لعله يقصد الخصائص باللغة الحديثة.
36. القانون في الطب 105/2.
37. نفسه 148/2.
38. نفسه 103/2.
39. نفسه 63/2.
40. علم المصطلح لطلبة كليات الطب والعلوم الصحية: 232.
41. القانون في الطب.
42. نفسه349/2.
43. علم المصطلح لطلبة كليات الطب والعلوم الصحية: 232 ومن نماذج التعريف بالقسمة عند ابن سينا تعريفه للبواسير, القانون في الطب: 479/2.
44. القانون في الطب 75/1.
45. نفسه75/1.